البعثة البابويّة الأولى (١٥٦١ - ١٥٦٣)

إنّ المجمع التريدنتيني طبَع بطابعه كنيسة القرن السادس عشر.

مُثّلت الكنيسة اللاتينيّة الغربيّة فيه تمثيلاً ضخمًا، ومع ذلك لم تُهمَل الكنائس الشرقيّة في هذا المجمع المسكونيّ. فقد أرسل عدّة سفراء بابويّون أو موفدون، في الخمسينات، لدعوة رؤساء الكنائس إلى الاشتراك فيه أو إلى انتداب ممثّلين. نقتصر هنا على كنيسة مصر القبطيّة والحبش، فنقول إنّ السفير البابويّ المطران أمبروسيوس بودجاج الدومنيكيّ سبق له أن قام بزيارة في ١٥٥٤ إلى بطريرك الأقباط جبرائيل السابع (١٥٢٥ - ١٥٦٨). وكتب بعد ذلك رسالة طويلة إلى البابا بولس الرابع (١٥٥٥ - ١٥٥٩)، بتاريخ ١٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥٥٥، أرسلها إلى رومة عن يد رجل ثقة يُدعى أبرام. وصل أبرام في نهاية حبريّة بولس الرابع، في ١٥٥٧ أو ١٥٥٨. ولقد فُهم - خطأ كما سيأتي ذكره - في المدينة الخالدة، أنّ أبرام إنّما جاء إلى رومة ليقدّم خضوع بطريركه. ففاضت الأوساط الكنسيّة فرحًا. ووقّع بيوس الرابع (١٥٥٩ - ١٥٦٥)، خليفة بولس الرابع، على مرسومَين لدعوة البطريرك إلى تعيين ممثّلين إلى المجمع. فكان الهدف الأوّل من رحلة اليسوعيّين إلى مصر تثبيت عودة الكنيسة القبطيّة إلى الاتّحاد برومة وتجديد الدعوة إلى المجمع.

وفي الوقت نفسه، كان لهذه الرسالة الأولى وقع شديد في النفوس. فكانت الرهبانيّة اليسوعيّة الفتيّة تركّز نظرها على ذلك المشروع الواسع النطاق وغير المألوف. وكانت التلميحات إلى هذه المأثرة في وثائق ذلك الزمن كثيرة، وكانت الصلوات الحارّة ترافق جهود المفوّضين الرسوليّين. فكان الأمل بالوصول إلى نتيجة سعيدة لصالح الكنيسة كلّها كبيرًا، ربّما أكبر من اللازم. لذلك أحدث إخفاق البعثة خيبة أمل مرّة بقدر ما كان الأمل كبيرًا. ونجد آثار ذلك في مفردات المؤرّخين القدماء.

فالكتّاب جميعًا، من دون استثناء، يعبّرون عن مشاعرهم تعبيرًا سلبيًّا، فلا نجد عندهم أيّة عبارة تفهّم أو تعاطف لصالح بطريرك الأقباط ولصالح

شعبه. فالبيانات مليئة بعبارات «خداع وجَهْل وواشٍ وعجوز وجاهل واعتداد بالنفس»، بغضّ النظر عن الأخطاء الصارخة والبدع غير المقبولة التي تتّسم بها، على ما يبدو، أخلاق أولئك المسيحيّين. إلاّ أنّ مصدر تلك الآراء المبالغ فيها بقدر ما تنمّ عن تمييز مُجحِف هو خيبة الأمل التي شعر بها الأب رودريكيز على أثر إخفاقه المُفجع، وقلّةُ تفهّمه خاصّةً.

هذه الدراسة لا تأتي بشيء جديد يُذكر، في ما يختصّ بجوهر الأمور: أي بإخفاق البعثة. لكنّنا نريد وضع النقاط على الحروف في شأن أسباب الإخفاق، وهي قلّة المرونة عند الأب رودريكيز وجهله اللغة العربيّة، يضاف إليهما عدم وجود قاعدة يقوم عليها النقاش. هذه العناصر هي بديهيّة في أيّامنا، ولكنّها لم توفّر في ذلك الحين.

شخصيّة أبرام

إنّ وجود أبرام، موفد بطريرك الأقباط جبرائيل السابع، في رومة، هو الذي كان نقطة الانطلاق للبعثة البابويّة. نعرف من مراجع مختلفة أنّ أبرام كان رجلاً مثقّفًا وشمّاسًا يحظى بثقة بطريركه. وكانت الدوائر الكنسيّة الرومانيّة تعدّه سفيرًا حقيقيًّا. لكنّ أشخاصًا آخرين، منهم الكردينال ألِسَنْدرينو، وكذلك البابا بولس الرابع، لم ينقادوا لميل الإنسان عادةً إلى التفكير وفقًا لرغباته. فلقد رأوا أنّ الرسائل العربيّة التي أتى بها أبرام قام هو بترجمتها، مع يوحنّا ـ ماري الحبشيّ (الذي كان قصير الباع في هذه اللغة الشرقيّة، وهناك عدّة شهادات تُثبت كلّها أنّه لم يكن في رومة إذ ذاك متضلّع من هذه اللغة). ولقد لَمحت تلك المقامات الدينيّة في كلام أبرام أمورًا غير طبيعيّة، ممّا أثار الشبهات. وفي وقت لاحق، اعترف بطريرك الأقباط بأنّ أبرام ذهب إلى إيطاليا لأموره الشخصيّة وبأنّه حصل منه على رسائل توصية، لا بل على رسائل موقّعة على بياض. أمّا الأب لينيز، رئيس اليسوعيّين العامّ، فقد بدا متحفّظًا، في حين أنّ الأب إليانو، الذي كان شابًّا وسريع التصديق، أدلى برأي إيجابيّ. فباشر الكردينال تحقيقًا سرّيًّا وأرسل رجلاً إلى القاهرة للحصول من البطريرك نفسه، بواسطة قنصل البندقيّة، على بعض الإيضاحات عن أبرام. لكن أبرام كان داهيًا فاشتمّ رائحة ما يُدبّر عليه وأرسل هو أيضًا شخصًا من قبله. واتّفق

أنّ مبعوث الكردينال ومبعوث أبرام رحلا في الوقت نفسه. فأعلم مبعوث أبرام البطريرك بما يجب أن يقوله للقنصل (في الواقع، تمكّن أبرام من التأثير في نفس البطريرك العجوز بتلفيق رواية مثيرة للدموع، يزعم فيها أنّه يعرّض نفسه لخطر الاحتراق حيًّا، إن خُيِّل للرومانيّين أنّه خدعهم). وهكذا، أخذت رومة جوابًا مؤيِّدًا لموقف أبرام، واعتقدت بأنّه جاء فعلاً يقدِّم الخضوع. ولمّا خلف بيوس الرابع بولس الرابع الذي توفّي في ١٥٥٩، عزم على إرسال يسوعيّين ليستكشفا نيّة البطريرك نفسه ويتسلّما من يديه هذا الخضوع، ويدعواه إلى المجمع. وبما انّ الأب عمّانوئيل دي مونتيماير كان مقيمًا بالقرب من مصر، أي في قبرس، فهو الذي فكّروا أوّلاً في اختياره. ولكن، حين وصل الأب رودريكيز من إسبانيا للبحث في بعض أمور إقليمه، بدا الرجلَ المرسَل من السماء والشخص المناسب لتحقيق ذلك المشروع الرسوليّ. وكان من المفيد أن يُضمّ إليه رجل يُحسن اللغة العربيّة، فعيّنوا الأب يوحنّا المعمدان إليانو، لأنّه من أصل يهوديّ وكان قد قضى وهو شابٌ عدّة سنين في مدينة القاهرة. كان يعرف الأماكن، وله إلمام بالعربيّة (من غير أن يُحسن كتابتها). لكنّ أصله اليهوديّ كان يعرّضه لبعض المتاعب من قبل عائلته وأبناء دينه. وهذا ما جرى فعلاً. أمّا الشخص الثالث فكان الأخ الفونس براڤو الإسبانيّ، وكان له هو أيضًا بعض الإلمام بالعربيّة.

وفي وقت لاحق، نرى أنّ ضحيّتي الإخفاق في البعثة، الأبوَين رودريكيز وإليانو، عدّا أبرام نصّابًا خسيسًا. وكانا يشعران بالمرارة، لأنّه خدعهما. وسار المؤرِّخون القدماء في خطاهما. ولكن يبدو أنّ كلّ ذلك لا يخلو من المبالغة. فهناك، ولا شكّ، سوء تفاهم في أمر السفير وفي ما يختصّ بالرسالة التي كان يحملها. فسواء أكان فيها تلاعب أم لا، لم تفسَّر تفسيرًا صحيحًا، لا من حيث اللغة العربيّة ولا من حيث الإنشاء الكثير الحشو والخالي من الالتزام العقائديّ. وكان للنفسيّة أيضًا دور في هذا الأمر. فإنّ عدم تفهُّم العقليّة المصريّة وطرق تعبيرها لم يساعد على تقدير الأمور حقّ قدرها. إنّ شخصية أبرام تذكِّرنا بشخصيّتين سوف يظهران على الساحة في وقت لاحق، بُعَيد إقامة اليسوعيّين في القاهرة: الأوّل مراد، سفير الحبش، والآخر إبراهيم حنّا، لبنانيّ مارونيّ، عابر سبيل، أصبح موفد بطريرك الأقباط في باريس ورومة. أفليس أنّ الأوروبيّين

حملوا هذين المبعوثَيْن على محمل الجدّ أكثر ممّا ينبغي؟ كانا رجلَين قادتهما امورهما (التجاريّة والماليّة و«السياحيّة») إلى رومة أو إلى أماكن أخرى، وكُلِّفا بمهمّات يقومان بها بحسب الظروف. فالبطريرك جبرائيل السابع لم يشعر قط بأن موفده المقدام قد خدعه. وسيعيّنه لاهوتيًّا في المناقشات مع اليسوعيّين وممثلاً في المجمع.

الرحلة

يوم الأربعاء في ٢ تموز (يوليو)، غادر فريق اليسوعيّين الصغير رومة، ترافقه أطيب تمنّيات الرهبانيّة اليسوعيّة، إذ إنّ تلك الرسالة التاريخيّة بعثت الأمل في تحقيق خير عظيم في سبيل الكنيسة. فكانت الصلوات تُرفع باستمرار في بيوت الرهبانيّة اليسوعيّة. وكانت السلطات الكنسيّة تشارك في تلك التطلّعات الحارّة.

وَصَل الموفدون إلى البندقيّة عن طريق أنكون. وهناك بدأت فترة انتظار لا نهاية لها، واضطرّ الأب إليانو إلى الاختباء في غرفة سطح صغيرة لئلاّ يبلغ خبر البعثة إلى آذان اليهود، وكان الأب رودريكيز والأخ براڤو يتسوّقان، فيشتريان كتبًا في العقيدة وفي المذاهب الشرقيّة، ويوصيان بتخيط الحُلَل الكنسيّة بقيمة ستّمائة دوقة، وهي هديّة البابا إلى البطريرك، ويُتمّان معاملات جوازات السفر، ويشتريان ما يلزمهم من الملابس (وكادت أن لا تختلف، في آخر الأمر، عن لباسهم الأوروبيّ. فسُرعان ما عرف الأخ قرّيْر الأب إليانو). وكانا يُحسنان إلى السفير، لأنّ نجاحهم كان يتوقّف إلى حدّ ما على نَيل رضاه (وكان قد أعرب عن رغبته في العودة إلى مصر، فمن الراجح أنّه أخذ يشعر بالحرّ). وكانت رومة على علم بجميع تلك الاستعدادات، بفضل العديد من الرسائل، ولا شكّ أنّ الأب إليانو هو الذي كان يكتبها عادةً، لأنّ الرئيس لم يكن يُحسن الكثير من اللغات.

وبعد انتظار كاد أن يُفقد الأمل، وكان ذلك في أوّل تشرين الأوّل (أكتوبر)، أي بعد وصولهم إلى البندقيّة بعشرة أسابيع، رُفعت أشرعة المركب وهبّ نسيم أخذ يرفع السفينة إلى الجنوب. وكان اليسوعيّون يتوقّعون، في الإنشاء المفخّم الخاصّ بالباروك، أن يتألّموا ويبذلوا انفسهم في سبيل البعثة،

فكانوا مستعدّين لاقتحام جميع أنواع الخطر والعناء. ولكنّ خيبات الأمل المُذلّة لم تكن أقلّ أجرًا عند الله من الصلبان المجيدة التي نقصتهم!

وفي عُرض البحر، قام الأبوان بخدمتهما الرسوليّة لدى جمهور السفينة المتعدّد الألوان. وكانا يعيشان وكأنّهما في بيت من بيوت رهبانيّتنا: يقيمان صلواتهما اليوميّة، ويحتفلان كلّ يوم بـ «قدّاس أبيض» في حضور الملاّحين والركّاب. ولقد ورد، في إحدى رسائل إليانو النادرة التي كتبها في تلك الأيّام، ملخّص حيّ لنمط حياتهم على ظهر السفينة. وكان الأب راوية ممتازًا، فإنّ وصف أسره وغرقه ممتع جدًّا. ولا شكّ أنّ إخوته في المعهد الرومانيّ قد سُرُّوا بالإصغاء، في أثناء القراءة على المائدة، إلى أخبار رحلته. فمن المؤسف أن يكون قد امتنع عن الكتابة في أثناء إقامته الثانية في مصر (١٥٨٢ ـ ١٥٨٥).

واكبّ الأب إليانو على درس العربيّة مدّة رحلته البحريّة، أي على قراءة وكتابة لغة لا يُحسن منها سوى الكلام. وهذا ما فعله رفيقاه أيضًا.

نستبق ما سيأتي ذكره فنلاحظ أنّ معرفة هذه اللغة كانت أوّليّة إلى حدّ بعيد، حتّى عند الأب إليانو، مع أنّه عُرف بأنّه نادرة زمانه في علم اللغات. فإنّه كان يجهل قراءة العربيّة وكتابتها، فوجب عليه الاعتراف بعجزه أن ينقل، من الإيطاليّة إلى العربيّة، قرارات المجمع النيقاوي الأربعة والعشرين. أوَليس من البليغ أن يكتب بطريرك الأقباط إلى البابا، ليعتذر عن إخفاق البعثة، أن موفدَيه يجهلان اللغة العربيّة، ممّا أدّى إلى قلّة تفاهم بينه وبينهما (ومراده أن في ذلك سبب الإخفاق). وأمّا حصول الأب إليانو في قبرص على شهادة من باب الاحتياط، فليس من شأنه أن يؤثّر فينا تأثيرًا حسنًا فوق الحدّ، علمًا بأنّ المبتدئين كثيرًا ما يُهنّأون بتقدّمهم الرائع!

تمّت الرحلة من دون الكثير من المتاعب، ولكن لا من دون بعض العواصف وبعض مخاطر القراصنة الذين ألفوا الاضطراب في السفينة كلّها.

وبعد خمسة أسابيع، وصلت السفينة، عن طريق راجوزة والزّنطة، إلى الإسكندريّة في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦١. فنزل اليسوعيّون في فندق الإفرنج، وذهبوا إلى زيارة آثار المدينة. وما إن كان الغد، حتّى رحل الأب

إليانو إلى القاهرة بصحبة مجموعة من الأشراف، للتخلّص من الاحتكاك الخطِر باليهود. فوصل إليها في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، في حين أنّ الثلاثة الآخرين، أي رودريكيز وبراڤو وأبرام، لم يصلوا إليها إلاّ في السادس والعشرين من الشهر. واهتمّ الأب إليانو، عند وصوله، بإعلام جبرائيل السابع، لكنّه لم يقبل في ذلك اليوم أن يستقبله. وفي الوقت نفسه، وُفّق الأب إليانو، بأقلّ من يوم، في تحديد مكان أخيه في الرهبانيّة، الأخ اليسوعيّ فونْجانْس فرّيْر، البرتغاليّ الأصل، والآتي من الهند، والذي أسره الأتراك في محاولة خاسرة للدخول إلى الحبش. ومن جهة أخرى، اهتدى إلى الأب إليانو أقرباؤه اليهود، ومنهم أمّه العجوز. وأقام اليسوعيّون في بيت صغير ملحَق بقنصليّة البندقيّة، حيث قدّم لهم القنصل ليونارد ايمو جميع الخدمات التي طلبوها.

المحادثات والمباحثات

تمّت مباحثات المفوّضين الرسوليّين مع البطريرك وممثّليه على مرحلتيْن: المرحلة الأولى، ابتداءً من الزيارة في مطلع كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٦١ إلى أواخر كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢، ملخَّصة بوجه خاصّ في الرسالتَيْن اللتَيْن حُرِّرتا في ٢٥ كانون الثاني (يناير): فترة اتّصالات ومفاجآت مزعجة («ليسوا مستعدّين للاتّحاد، كما يفكّرون في رومة»)، وإرجاءات دائمة في اتّخاذ القرارات الهامّة. ولقد سبق أن تسرّبت عدّة تلميحات بليغة إلى الرسائل الأربع التي كُتبت في ١٠ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٦١، وهي رسائل وُجّهت إلى أربعة أشخاص مختلفين، ولكنّها متطابقة في المعنى ومتكاملة في التفاصيل. وهناك رسالة سابقة إلى الرئيس العامّ كُتبت في ١٤ كانون الثاني (يناير).

أمّا المرحلة الثانية، فإنّها ابتدأت في ٢ آذار (مارس) ١٥٦٢، حين تباحث اليسوعيّان مع البطريرك في دير القدّيس أنطونيوس، وانتهت في مطلع شهر نيسان (أبريل)، حين عاد الأبوان إلى العاصمة المصريّة. ولقد وُصف جوهر هذه الفترة في رسائل ٧ نيسان (أبريل) ١٥٦٢. وفي الرسائل إلى الرئيس العامّ خاصّةً، نكتشف خيبة الأب رودريكيز الشديدة. ففي ذلك الحين، قُضي الأمر، ولم تأتِ المحادثات التي امتدّت إلى نهاية شهر تمّوز (يوليو)، والتي تستند

إليها رسالة ٢١ آيّار (مـايو) ورسـالة ٩ آب (أغـسطـس) ١٥٦٢، بأيّ شيء جديد. وهذا شأن زيارة أخيرة للبطريرك أتت في آخر لحظة وقام بها الأبوان في تمّوز (يوليو) ١٥٦٢ في دير القدّيس أنطونيوس، فإنّها لم تحصل على أيّ تعديل جوهريّ. وهذا يعني أنّ المهمّة قد انتهت في الواقع.

المرحلة الأولى: (تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦١ ـ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢)

ما إن وصلت الشخصيّتان الرسميّتان، اللّتان أوفدتهما رومة، عـاصمة العالم المسيحيّ الغربيّ، حتّى علم البطريرك بحضورهما الهادف إلى زيارته في مقرّه، في أرض مصر الخاضعة لسلطة الأتراك. لكن هذا الحدث غير المنتظر لم يكن ليروق له. ولّما كان يخاف من الأتراك، فقد أوعز إلى القنصل إيمو بأكبر قدر ممكن من التكتّم. ورفض رفضًا باتًّا أن يستقبل الأب إليانو، ثمّ الأب رودريكيز، في حين أنّه إذن في زيارة السفير أبرام. وفُسّرت هذه المقابلة على انفراد بأنّها وقت مؤاتٍ يمكّنهما من وضع خطّة عمل.

وتمّ اللقاء الرسميّ بين الكنيستين، كنيسة مصر وكنيسة رومة، في الأوّل من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٦١. ومن الراجح أنّ هذا الحدث جرى في كنيسة العذراء في حارة زويلا، القريبة من الحيّ البندقيّ، والتي كانت مقرّ البطريرك في تلك الأيّام. وبعد ذلك اليوم بخمس وعشرين سنة، تذكّر الأب إليانو ذلك الدخول السعيد، وكان شديد التأثّر بتلك الذكرى الرائعة: «دخلنا الكنيسة مرتدين حُللاً كنسيّة على جانب من الجمال، في عزف الآلات الموسيقيّة والترنيم بالأناشيد الروحيّة». وإن صحّ أنّ هذا الدخول تمّ بحسب الطقوس الجارية حاليًّا في الأحداث الهامّة (الاحتفال بدخول العروسَيْن أو بالمطران أو بطالب الدرجات الكهنوتيّة أو بالميت، إلخ)، نتصوّر كيف أنّ اليسوعيّين اجتازوا الباب الرئيسيّ، يتقدّمهم الشمامسة، يحمل أحدهم صليبًا ويرنّم الآخرون، يرافقهم رنين المثلّثات وخشخشة الصنوج. وهذا الاستقبال الشديد الحرارة أنعش «أملاً كبيرًا» في قلب اليسوعيّين. ولقد أبدى لهم البطريرك مودّة عظيمة. وفي نهاية الرتبة، تناولوا معًا طعام الغداء. تمّ إذًا هذا التلاقي بعد

الفراق في أجواء أفضل تقاليد الضيافة المصريّة. وسلّم رئيس الوفد الرومانيّ إلى البطريرك مرسومًا من البابا يعبّر عن محبّة البابا لشخصه وللإكليرس والشعب القبطيّ، وعن رغبة البابا في مساعدتهم للوصول إلى الاتّحاد بالكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، الذي لا بدّ منه لنَيل الخلاص الأبديّ. فمن الواجب أن يُستكمَل العمل الذي باشره البطريرك بإرساله أبرام. وهو مدعوّ إلى تجديد خضوعه للبابا وإلى تقديمه صراحةً. والموفدان يعدان بتقديم عونهما وخدماتهما، حتّى بتعريض حياتهما للخطر. أمّا البطريرك، فقد عبّر عن تأثّره أمام ما يكنّه البابا من مودّة وأمام ما يُظهره من محبّة بإرساله الموفدَين.

وكان للموقف الحارّ الذي وقفه جبرائيل السابع وقع مشجّع في نفسي اليسوعيَّين. لا شكّ أنّ المصريّين يمتازون بتسهيل الاحتكاك الأوّل، ويُخشى أن ينخدع الغريب.

وأراد الطرفان أن يعبّرا عن صداقتهما بتقديم الهدايا الواحد للآخر. فقدّم البطريرك «بعض الهدايا»، لكنّ اليسوعيَّين اعتذرا بلطف عن قبولها. وفي أثناء حفلة خاصّة، قدّم الموفدان للبطريرك هديّة روما: حُللاً ثمينة تبلغ قيمتها ستمائة دوقة. لكنّ البطريرك فضّل أن يترك هذه الهديّة في بيت القنصل، كما أنّه أراد أن تجري الحفلة في المكان نفسه، خوفًا من الأتراك ومن بعض المسيحيّين الأقباط.

محادثات ومباحثات ومناقشات

وفي نهاية حفلة الاستقبال، بوشر العمل على الفور، بشيء من السرعة على ما يبدو. فتكاثرت الزيارات إلى البطريرك. وبدا البطريرك نزيهًا ومستعدًّا لكلّ شيء، مع أنّ شكوكًا وجيهة كانت تُثار حول تصرّف أبرام والأقوال التي فاه بها في روما. وأخذ رودريكيز يدخل شيئًا فشيئًا في تفاصيل الهدف المنشود من زيارتهما، فعرض هذا المبدأ الأساسيّ، وهو كيف «أنّ نيل الخلاص يحتّم الخضوع للكنيسة الرومانيّة المقدّسة وللحبر الرومانيّ، بصفته نائب المسيح حقًّا وخليفة القدّيس بطرس، هامة الرسل. وبصفته رأس الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، وأبًا لجميع الشعوب المسيحيّة ومعلّمها، وقاضي القضاة بحكم وبتّ

في جميع المسائل التي يقوم حولها شكّ في مجالات الإيمان والكتاب المقدّس والأسرار».

ومن ذلك المبدأ خلص رودريكيز، على وجه منطقيّ، إلى حثّ رئيس الكنيسة القبطيّة على البعث إلى البابا برسالة خضوع، يوقّعها هو والإكليرس والمؤمنون، في نسختيْن، تُرسل الواحدة إلى رومة، وتُحفظ الأخرى في مكان عامّ، لتخليد الذكر، ولتشرح للمؤمنين. ويمكن القيام بهذا المسعى بلا مشقّة، بالتعاون مع الموفدَين الرومانيَّين اللذَين فُوِّضا لهذه الغاية. ويدلّ هذا العمل على التكملة المنطقيّة لرسائل الخضوع التي سبق أن أرسلت إلى رومة عن يد السفير أبرام.

وجاء جواب البطريرك على الطريقة المصريّة: الموافقة والتأجيل وعدم التسرُّع، وبكلمة واحدة، الاقتصار على وعود يُرجأ إنجازها إلى وقت لاحق. لكن رودريكيز لم يصبر ولم يتجنّب الاستسلام للغضب الذي لا خير فيه، بل أخذ يلحّ ويضغط ليحمل البطريرك على الالتزام. ولقد شكا في وقت لاحق من أنّ البطريرك وحاشيته لم يتكلّموا بطيبة خاطر، بل عن مجاملة. في الواقع، كلّ ذلك ينمّ عن قلّة تفهّم عند الأب نفسه.

وهناك رسالة أخرى كان يجب تبليغها إلى البطريرك، وهي دعوة صريحة إلى إرسال ممثّل إلى المجمع التريدنتيني. فكانت ردود فعله هي هي، أي القبول بالمبدأ والموافقة الشفهيّة، مع إرجاء التنفيذ إلى وقت لاحق. وكان البطريرك ينوي تعيين إسحق، مطران قبرس للأقباط. وحين جنحت سفينة الأب إليانو في هذه الجزيرة، استأنف مساعيه بنشاط لدى المطران.

وعرضت رومة أخيرًا على رئيس كنيسة مصر أن يُرسل بعض الشبّان إلى المدينة الخالدة ليحصلوا فيها على تربية وثقافة متينة (نجد هذه العناية بالتكوين في جميع الاهتمامات الرومانيّة، وفي وقت لاحق، عند السلطات المدنيّة). فكانت ردود الفعل عند البطريرك ما ألفناه: الموافقة المبدئيّة وتأجيل التنفيذ: «لخوفه الشديد من غير المؤمنين».

لم يكن هذا السبب منفردًا، لكنّه يظهر في أغلب الأحيان، من غير أن

يتحسّس له الأوروبيّون بقدر كافٍ. ذلك بأنّ المسيحيّين في الشرق كانوا يعيشون في نظام العثمانيّين، وهو نظام لا يُحمدون عليه، لأنّ العثمانيّين كانوا على جانب كبير من الاشتباه فكانوا يراقبون عن كثب كلّ احتكاك بالغرب، بالبابويّة أو بالجمهوريّة البندقيّة.

وأراد اليسوعيّان أن يسهّلا سير المحادثات، فأقاما بالقرب من المقرّ البطريركيّ، في حارة زويلا. أفي هذا الإطار اكتشف الأب إليانو قرارات مجمع نيقيا الأربعة والثمانين الشهيرة؟ تبدو صحّتها في نظر الاختصاصيّين قابلة للنقاش، ولكن كان لها عند الأقباط سلطة عظيمة. ورد ذكرها عرضًا للمرّة الأولى في الرسالة التي كتبها الأب رودريكيز في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢. هذا وقد أقرّ كاتب الرسالة بأنّ الأب إليانو لم يتوصّل إلى نقلها من العربيّة إلى الإيطاليّة، وهذه الملاحظة تُطلعنا على درجة تضلّعه من العربيّة.

لم تطل إقامتهما في البيت الجديد، لأنّ البطريرك عيّن ممثّلين، اختارهما من بين أذكى أبناء شعبه، وهما أبرام الذي عرفناه وجيورجيوس الذي لن نعود نعرف عنه أيّ شيء. وكان رودريكيز يعقد الأمل بأنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام، لكنّه شعر في كانون الثاني (يناير) بأنّه لم يعد سيّد الموقف. أُعدّت وثائق الخضوع ولم يبق إلاّ أن يوقّع البطريرك عليها، لكنّه ما زال يؤجّل التوقيع، لعجزه عن اتّخاذ القرار. فاعتذر الممثّلان وأرجآ القضيّة إلى أجل غير مسمّى. وإلى جانب ذلك، جحد أحد الأقباط إيمانه، فعكّر ذلك صفو البطريرك. وأخذ الأقباط الآخرون يراقبون البطريرك العجوز لئلاّ تزلّ به القدم، فيجرّ كنيسة الأقباط، على غير علم منه، إلى حضن الغرب، عدوّ الأتراك، ولا يأخذ بعين الاعتبار ما هناك من أسباب عقائديّة. فإنّ بعض المقرّبين إلى البطريرك كانوا، على ما يبدو، أكثر إدراكًا لما في هذه القضيّة من رهان، علمًا بأنّ ذلك الخضوع للبابا لم يكن فعل قضاء، بل فعل احترام وتواضع، يقوم به أخ صغير نحو أخيه الأكبر. فمنذ أن تمّ التقسيم إلى بطريركيّات، أصبح كلّ بطريرك «سيّد بيته». لم يكن هذا الرفض منتظرًا، فأذهل اليسوعيّين إلى حدّ كبير، فقاما عبثًا بمحاولة لدى البطريرك نفسه لحمله على تعديل موقفه. إنّ نقطة الانطلاق، القائلة بأنّ قبول رئاسة البابا يؤدّي «بسهولة» إلى سائر الأمور، لم تكن صحيحة، فضلاً عن أنّ البطريرك لم يبق مطمئنّ النفس، في حين أنّ اليسوعيّين شعرا بالحاجة

إلى التراجع، بعد قضاء شهرين مليئين بالمجادلات العنيفة والعقيمة، حتّى إنّ صحّتهما قد ساءت. وهناك أخيرًا أنّ أبناء دين الأب إليانو السابقين كانوا يلاحقونه بلا انقطاع في شأن دَين قديم مزعوم، حتّى إنّ الأب الرئيس اضطرّ إلى التفكير في تعيين رجل آخر مكانه. فتوقّفت المجادلات إلى حين. وسيلتقون في هدوء بريّة القدّيس أنطونيوس.

المرحلة الثانية (آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ١٥٦٢).

وفي ٢ آذار (مارس)، رافق الموفدان البطريرك إلى دير القدّيس أنطونيوس. وكان اليسوعيّان قد تمنّيا حضور أبرام وجيورجيوس. وإلاّ لاستحال النقاش مع بعض الرهبان، لكونهم جُهّالاً مشهورين، كما يقول البطريرك نفسه. ولقد تألّم اليسوعيّان، في أثناء تنقّلاتهما، أمام الدمار الدينيّ الذي يعيش فيه مسيحيّو الريف المصريّ. فما أكثر الأولاد الذين لم يعمّدوا بالرغم من تقدّمهم في السنّ، ومع ذلك، يبدو أنّ الكهنة والمطارنة أنفسهم لا يبالون بالأمر كما يجب. فكان اليسوعيّان يعرضان نفسيهما لإحياء الدين في منطقة الصعيد، بعد إنجاز مهمّتهما.

في ٧ آذار (مارس)، وصلت بهم قافلة الجمال إلى الدير. ولا نعلم هل استطاع اليسوعيّان أن يزورا خزانة كتب الدير، كما طلب إليهما المونسنيور فيوريبلّو. ففي رومة وأوروبّا، كان الأدباء يعتقدون بأنّ في الدير «كتبًا كثيرة»، فكان العلماء يرغبون في الحصول على «لائحة الكتب اللاتينيّة التي يقال إنها بينها». لكنّنا لا نجد في رسائل اليسوعيّين أيّ تلميح إلى ذلك، لعدم وجود تلك المكتبة، على الأرجح، إلاّ في مخيّلات علماء أوروبّا. واليسوعيّان هما من أوائل الأوروبيّين الذين زاروا هذا الدير الشهير. إنّهما أقاما فيه مرّتين ولم يفكّرا في ترك وصف له، وحتّى نبذة عنه.

وفي دير القدّيس أنطونيوس، استؤنفت المباحثات بزخم أكبر. واجتهد رودريكيز أن ينتزع توقيع البطريرك على وثيقة الخضوع. وطلب أيضًا توقيعًا على ملخّصات المناقشات السابقة المختصّة بالأمور التي تمّ عليها الاتّفاق، بحسب ظنّه. لقد توصّل رودريكيز بمشقّة إلى الحصول على هذه الملخّصات من

أبرام وجورجيوس. لكن تعبه ضاع، فإنّ البطريرك لم يقل صراحة: لا، بل سلّم أمره إلى حكم كاهن شابّ كان في دير القدّيس أنطونيوس.

تدخلُ جبرائيل

كان اسم ذلك الكاهن جبرائيل، وكان، في نظر رودريكيز، رجلاً غير مثقّف، لكنّ البطريرك العجوز كان يقدّره إلى أبعد حدّ: ولقد رفض هذا المعاون صراحةً كلّ اتّفاق وكلّ توقيع. لا بل ألقى المسؤوليّة على البطريرك في حضور الموفدّين. وأذعن له البطريرك، فرفض التوقيع. فرأى اليسوعيّان أنّ البطريرك ألقى الآن القناع عن نفسه وكشف عن خداعه المكتوم. وحاول رودريكيز أن يُنقذ البعثة في خلوة مع البطريرك في عدم حضور ذلك الـ «يهوذا» المسيء. لكنّ البطريرك تخوّف من تلك المحادثة فتهرّب منها مدّة طويلة. وكان الأب يريد تنسير ذلك الانقلاب الفجائيّ، بعد كلّ تلك الوعود. كيف يستطيع بطريرك أن يتأثّر إلى هذا الحدّ بشابّ يكاد أن يكون أمردا لأنّ جبرائيل كان أكثر ثقافة. وما هو أمر رسائل الخضوع التي أرسلت عن يد أبرام؟ لم تكن سوى رسائل احترام نحو أخ كبير، ولكنّه مساوٍ له. ولماذا أرسل أبرام بصفة سفير؟ كلاّ! لم يكن أبرام سفيرًا حقيقيًّا، لكنّه أراد أن يرى رومة، فتحنّن عليه البطريرك وسلّمه رسائل إلى أخيه، مطران رومة، ضمّنها بعض التوصيات، كما جرت العادة في الشرق. وأضاف إليها بعض الأوراق الموقّعة على بياض، يجوز لأبرام أن يكتب فيها ما شاء، بحسب الظروف.

وأخيرًا انتهى كلّ شيء في المشاجرات الفوضويّة والضجيج، ذلك بأنّ جبرائيل وسائر الرهبان شتموا موفدّي رومة وجدّفوا على الكرسيّ الرسوليّ المقدّس وعلى المجمع وعلى الإيمان الصحيح، واتّهموا الموفدّين بالهرطقة، ولم يبق مكان للنقاش، وأكّد الأقباط أنّهم سيحافظون على إيمان آبائهم بكامله، كما هو مدوّن في كتبهم، وأنّهم لن يقدّموا الخضوع للبابا، مفضّلين أن تُقطع رؤوسهم على تغيير أي شيء في إيمانهم.

إنّ رسائل الأب رودريكيز مرصّعة بمثل هذه العبارات: «ضلال هائل» و«هرطقة واسعة» و«عناد كبير» و«عَجْز كبير» و«جهل مُطبق»...

وبعد تسعة عشر يومًا، رجع الأبوان صِفْر الأيدي وخيّبي الرجاء إلى العاصمة. أمّا أبرام وجيورجيوس - لم يحضر أحدهما إلى دير القدّيس أنطونيوس - فإنّ البطريرك سلّم إليهما رسائل، لكي تُستؤنف المناقشات في العاصمة، إن اقتضى الأمر. ولمّا وصل اليسوعيّان إلى القاهرة، في أواخر آذار (مارس)، كان الوباء يفتك بالناس، ويسبّب موت ألفي شخص كلّ يوم، وكان العدد يزداد. فاحتبس القنصل والتجّار في مكان معزول، كما جرت العادة في ذلك الزمان.

وفي نظر اليسوعيّين، كانت كلّ هذه القصّة مجرّد مخادعة. وبهذه الصورة دخلت تلك البعثة إلى التاريخ. في الواقع، كان كلّ شيء سوء فهم جسيمًا. فحين ذهب أبرام، ومعه الرسائل، إلى عاصمة الكثلكة، لم تخطر ببال البطريرك فكرة أو رغبة الاتّحاد برومة، بل أظهر بالأحرى، في أثناء المحادثات مع الموفدين الرسوليّين، أنّه لم يكن، لأوّل وهلة، عديم الاكتراث لذلك المرض. فهل كان يشعر لهذا السبب، وهو الراهب العجوز، والقليل الثقافة، ما هنالك من فرق أساسيّ بين موقف الأقباط وموقف رومة؟ فمن أين ذلك الاحتجاج الذي أظهره رجاله، مع أنّهم كانوا أقلّ جهلاً منه؟ لم يكن البطاركة يشعرون بأيّة حاجة إلى اتّحاد عقائديّ. كانوا منعزلين طوال القرون في وادي النيل، فلم تخطر ببالهم قطّ مشكلة الخضوع لبابا رومة، بل كانت الكنيسة المصريّة تكتفي تمامًا بنفسها. وبالرغم من تلميح بعض الكتّاب إلى مكاسب مادّيّة يقال إنّ البطريرك كان يأمل الحصول عليها من رومة عن يد أبرام، فليس في المراسلة التي وصلت إلينا ما يحملنا على التفكير في ذلك الأمر، بل يبدو لنا أن توصية لأبرام قد تكون أقرب إلى الحقيقة التاريخيّة. فالطبع المصريّ شديد الميل إلى التوصيات. والإلحاح الدائم الذي كان رودريكيز يلجأ إليه كان يضايق الأقباط وينفّرهم من المفاهيم الكاثوليكيّة.

البحث في كتب الأقباط وفي مواقفهم الدينيّة

ومع ذلك، فإنّ الأب رودريكيز، في أثناء إقامته في دير القدّيس أنطونيوس، شقّ طريقًا جديدة للاستكشاف، ولم يتنبه للأمر. فلقد أذن لليسوعيّين، بناءً على طلب منهما، أن يريا الكتب اللاهوتيّة القبطيّة. فكان في

إمكانهما أن يبحثا في المجامع القديمة والعقائد والتقسيم إلى بطريركيّات إلخ. إعترف رودريكيز الذي علّم اللاهوت في الماضي، أنّ كلّ شيء كان مليئًا بالأخطاء والبِدَع.

نلاحظ، من دون أن ندخل في التفاصيل، كيف أن الأب إليانو استغلّ بعد ذلك تلك المناورة الخاطئة. ففي أثناء البعثة الثانية، لم يبحث عمّا في الكتب القبطيّة من تناقضات، بل بحث ووجد العديد من القضايا التي كانت كاثوليكيّة مائة بالمائة والتي من شأنها أن تقرّب وجهتي نظر الكنيستَيْن.

فمنذ أن كتب رودريكيز رسالة في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢ (لم تمض ثلاثة أشهر على وصوله إلى مصر)، وضع قائمة للأخطاء العقائديّة والعادات والآراء التي تختلف عمّا عرفه في الكنيسة الرومانيّة أو التي تناقضه. ولقد وردت هذه القائمة المؤسفة في كتاب واسع الانتشار وضعه المؤرّخ فرنسيس سكيني اليسوعيّ (١٥٧٠ ـ ١٦٢٥). هل يمكن تقدير الضرر الذي ألحقه هذا النصّ؟ فبعد أن دخل في كتب تدريس اللاهوت، حيث يعرض الكتّاب القدماء «بِدَع أهل الطبيعة الواحدة»، فلا شكّ أنّه نقل لمدة طويلة إلى أوروبّا القرن السابع عشر صورة مبتورة عن مصر ورأيًا مشوّهًا في الشعب القبطيّ. ووجب انتظار دراسات الرحّالة فانْسْلب (- ١٦٧٩) ولا سيّما دراسات الأب غليوم دوبِرْنات (١٦٦٧ ـ ١٧١١) لكي يَفْضح ما في القائمة من نزعة انفراديّة وغير تامّة وغير صحيحة. تغلغل الأب دوبِرْنات مدّة سنين طويلة في هذا الشعب ـ وهذا ما لم يفعله الأب رودريكيز ـ فتمكّن من تصحيح الأخطاء في رسالته المؤرّخة في ٢٠ تمّوز (يوليو) ١٧١١، والتي صدرت في «المذكّرات الجديدة»، المجلّد الثاني، والتي اطّلع عليها الأب دي صوليير (١٦٦٩ ـ ١٧٤٠). لقد أخذ هذا البَلَنْدي على نفسه أن ينتقد أخاه الإسبانيّ (في رواية سكيني، لأنّ الأب دي صوليير كان يجهل الرسائل الأصليّة)، في مقالة عن البطاركة الإسكندريّين.

وهناك بعض الأمور الأخرى، من التي عدّها الأب رودريكيز قابلة للنقاش، قد أُضيفت إلى تلك القائمة المشؤومة، وكان قد دوّنها «سرًّا وخطيًّا» على توالي المحادثات والمناقشات، وهي تشكّل مجموعة مشاكل للدرس، وأمور

مشكوك فيها يجب توضيحها، واعتناءات يجب الحصول عليها، ولا بدّ من عرضها جميعًا على البابا.

أمّا المناقشات في القاهرة مع أبرام وجيورجيوس فكانت تافهة، فطالت بعض الأسابيع وسارت بين بين حتّى شهر تمّوز (يوليو) من دون أيّة نتيجة. فكانت حوارًا بين طُرْش بسبب عدم التفاهم العائد إلى الاختلاف في اللغة والعقليّة والثقافة. فالأب رودريكيز، وهو الأستاذ السابق في اللاهوت، والمتمرّس بـ «المناقشات العامّة» وبالمنطق المدرسيّ، ينسب عدم نجاحه إلى إرادة الأقباط السيّئة. في نظره، كان كلّ شيء منطقيًّا، لا يُفنَّد، بسيطًا، صافيًا، واضحًا. فإن لم يُذعَن لمنطقه، ففي ذلك الدليل الواضح على سوء النيّة. وعلى غرار ما جرى في دير القدّيس أنطونيوس، فقد اغتاظ الطرفان وتراشقا بالسبّ والشتيمة. فلا فائدة في الاستمرار. ولذلك فضّل اليسوعيّان الذهاب إلى الإسكندريّة للقيام بالخدمة الرسوليّة لدى الإفرنج وانتظار توجيهات رومة: إمّا العودة، ومن الأرجح عن طريق قبرس، وإمّا الذهاب إلى بعيد: إلى الهند واليابان أو الحبش، وهي بلاد يرجى منها خير أكثر من أمّة الأقباط الناكرة الجميل! أكّد الأبوان أنّهما مستعدّان لكلّ شيء.

ولكن، قبل العدول النهائيّ عن تلك الرسالة التي هي مهمّة بقدر ما هي مشؤومة، أراد اليسوعيّان أن يقوما بمحاولة أخيرة. فقد دفعتهم انتفاضة يائسة إلى الرغبة في زيارة البطريرك مرّة أخيرة في دير القدّيس أنطونيوس، للتحدّث إليه بلطف وتواضع، ولتوجيه دعوة مؤثّرة إليه، ولوضعه أمام مسؤوليّاته، عسى أن يعود أدراجه، ولعَرْض قرارات نيقيا عليه، فهي تعبّر بوضوح شديد عن واجب الخضوع لبابا رومة، وللَفت انتباهه إلى التناقضات البيِّنة التي في الكتب اللاهوتيّة القبطيّة.

ومرّة أخرى، اقتحم موفدا البابا مخاطر الطريق الطويلة عبرَ الصحراء في منتصف تمّوز (يوليو)، وهو أحرّ شهور السنة. فنزل ردّ فعل البطريرك على الموفدين نزول الحمّام البارد. فإنّ البطريرك لم يُظهر أيّ اغتباط بزيارتهما الثانية. ففي أثناء خطبتهما، التي أعدّاها بعناية وألقياها في خلوة، قاطعهما واستفهم فجأةً عن هدف زيارتهما. يبدو أنّ قد طفح الكيل. فلم يُخفِ عنهما رئيس

الكنيسة أنّ الأقباط لن يتخلّوا أبدًا عن أيّ شيء من إيمانهم القديم الذي أخذوه عن أجدادهم، والذي تعلّمه كتب آبائهم. وأضاف أنّه، منذ التقسيم إلى بطريركيّات، أصبح كلّ واحد سيّد بيته، ورفض رفضًا باتًّا أن يُصغي إلى ما يرغب الموفدان في التعبير عنه. ولم يتبل ملخّصات التناقضات. لقد انتهى كلّ شيء، فلا ولا: «وأغلق الباب تمامًا». وأمّا الحُلَل الكنسيّة الثمينة، تلك الهديّة التي قدّمها البابا، فإنّ البطريرك طلب إليهما أن يستردّاها.

أسباب الإخفاق

البعثة كُتب لها الفشل منذ بدايتها. فالالتباس في الأصل شوّه وجهات النظر. ذلك بأنّ تصريحات أبرام فُهمت فهمًا خاطئًا في رومة. ولكن، في أثناء الطريق، كان قد يمكن أن تتّجه نقطة الانطلاق الخاطئة هذه نحو الغاية المنشودة.

عدّة أسباب كانت تحول دون نجاح البعثة. سبق أن ذكرنا الخوف من الأتراك. فإنّ محتلّي أرض مصر لا يستحسنون أيّ اتّفاق مع أعدائهم، وإن كان هذا الاتّفاق دينيًّا. ثمّ هناك الجهل، ذلك «الخصم الثقيل». ففي التعامل مع الجهّال، يتعسّر إيجاد قاعدة مشتركة للمحادثات العميقة. لكنّ هذا الجهل كان يصيب الطرفين. كان الأقباط ينقصهم التكوين العقليّ والمدرسيّ، ولا شكّ أنّ كتبهم الطقسيّة واللاهوتيّة والآبائيّة لم تكن على مستوى المشاكل المطروحة. ومن جهة أخرى، كان الموفدان تنقصهما الأدوات اللازمة لنقل أفكارهما إلى الآخرين. فكانا يجهلان العربيّة، ولا يتحسّسان العقليّة القبطيّة والمصريّة.

سبق لنا أن أشرنا إلى لغة البلاد. فلا شكّ أنّ المناقشات كانت تجري بالعربيّة، بلغة لها عبقريّتها الخاصّة، وبمفردات تأثّرت بالإسلام إلى حدٍّ بعيد. وأمّا المفاهيم المدرسيّة، التي صُفّيت بعد قرون من المناقشات («أقنوم، طبيعة، جوهر، بنوّة، ألوهة» إلخ)، وإن كان ما يعادلها بوجه صحيح في العربيّة، فكانت غير معروفة. ولا شكّ أنّ «اللاهوتيّين» الأقباط جبرائيل وأبرام وجيورجيوس لم يدركوا منطق الأدلّة المدرسيّة التي أتى بها الأب رودريكيز. كان مبتدئًا في هذه اللغة، فلم يكن عنده كتاب صرف ونحو ولا مفردات. ولا شكّ أنّ أبرام كان يجهل اللاتينيّة، فالترجمات الإيطاليّة التي قام بها أضلّت السلطات

الرومانيّة. وأمّا معرفة الأب إليانو المترجم للغة العربيّة فكانت أوّليّة. عند مغادرته القاهرة، كان شابًا فلم يتسنّ له أن يتقدّم في معرفتها (ومن الراجح أنّ اللغة المألوفة في عائلته كانت العبريّة في صيغة من صيغها). وحين كان على ظهر السفينة، انصرف إلى الدرس. ولقد قال فيه الأب رودريكيز: «كمترجم، كان موفّقًا إلى حدّ ما». لم يستطيع أن ينقل إلى الإيطاليّة قرارات مجمع نيقيا، فكيف ينقل البيانات العقائديّة؟ أمّا كونه حصل، من باب الاحتياط، على شهادة في معرفة العربيّة، فلا يدلّ على شيء. فقد سبق لنا أن قلنا إنّ كلّ مبتدئ في هذه اللغة يمكنه أن يحصل عليها. لكن البطريرك كتب إلى البابا أنّهم لا يفهم بعضهم بعضًا، وهذا أمر ذو مغزى. وبالاختصار، يبدو غير ممكن أن يُجري الطرفان مناقشات على مستوى واحد، كما لو كانا متحاورَين مقبولَين.

نحن إذًا أمام جهل للغة والثقافة. فهناك مواقف يبدو أنّها كاذبة وخدّاعة، فُسِّرت كأنّها كاذبة وخدّاعة فعلاً. وأمام عدّة ردود فعل أو عبارات بَدرت من أبرام، لم يكن موقف رودريكيز ما كان يُنتظَر منه. وفضلاً عن ذلك، أفلم يتجاهل مهمّته؟ هذا ما يجوز لنا أن نتساءله. فإنّ لينيز كان قد دوّن في توجيهاته أنّ على الوفد أن يزور البطريرك من قِبَل البابا، وأن يستكشف عن نواياه، وأن يحافظ على أطيب الاستعدادات، وأن يقدِّم المعلومات عن أمور الإيمان. لكن رودريكيز تصرّف تصرُّف الفاتح، متيقّنًا من القيام بدور تاريخيّ. وهذا ما شعر به أبرام، يوم عاتب رودريكيز وقال له إنّه لم يأت ليتباحث مع البطريرك، بل ليزوره بالمحبّة. كان رئيس الوفد يُلحّ لينتزع توقيعًا ويحصل بالقوّة على الخضوع، خلافًا للنصائح الحكيمة التي زوّده بها الرئيس العامّ: «البدء بالأمور التي توافق الطرفَيْن... والابتعاد عن الشجار والشقاق... والسير شيئًا فشيئًا». لم يُدرك رودريكيز ما كان يريد البطريرك بتلك التأجيلات المغلّفة بالأقوال المهذّبة. فهو يناقش ويُعيد الكرّة ويتهجّم ويريد أن يكون على صواب مهما كلّف الأمر. فكان ينقصه بُطء النيل وما في هذا البطء من فائدة، كما كان ينقصه سلامة التفكير. كانت توصيات لينيز الحكيمة خالية من كلّ عيب: التزوُّد بالحلم والصبر، وتجنُّب الإمخاط والمعاداة، واحترام الاختلاف في الرتب (مثلاً: أراد رودريكيز على الفور إصلاح العادات المختصّة بسرّ المعموديّة)، وتحاشي المباحثات اللاذعة.

ولم يقدّر رئيس الوفد المشاكل المختصّة بالعلاقات بين الكنيستَيْن حقّ قدرها. شقّ طريقًا جديدة، فكان من حقّه أن يرتكب بعض الأخطاء، حتّى الكبيرة منها. ولقد وضّحها المستقبل شيئًا فشيئًا.

أمّا الأب إليانو، فكاد رئيسه اللامع أن يغطّي عليه. لا نراه، ولكنّه حاضر، ولا نعرف أيّ شيء عن اقتناعاته. من الراجح أنّه تفهّم الأوضاع على وجه أقرب إلى الواقع. فبفضل اختباراته السابقة، نضج فيه هذا الاقتناع، وهو أنّ التعبير الشفهيّ عن الإيمان لا يستوعب السرّ بكامله. فكانت هذه الفكرة شعورًا مُسبقًا أثبته المستقبل!

الخدمات الرسوليّة

كان الأب لينيز قد أوصى بإلحاح في توجيهاته بالانصراف إلى الخدمات الرسوليّة التي تقوم بها رهبانيّتنا عادةً، علمًا بأنّ الرسالة لدى بطريرك الأقباط لها الأولويّة المطلقة. وبناء على ذلك، فسواءً أكان في البندقيّة أم على ظهر المركب أم في الصحراء بصحبة البطريرك أم في القاهرة والإسكندريّة، كان الموفدان يخاطبان جميع فئات المؤمنين ليبشّراهم بكلمة الله: فكانا يشرحان لهم العقيدة المسيحيّة لحملهم على التقدّم من سرّ الاعتراف: الذين من الطائفة اللاتينيّة، والإفرنج والتجّار والملاّحون والبحّارة، ولم يُهملوا اللوثريّين والعبيد (بالكثير من الفطنة)، مع تحفّظ خاصّ لليونانيّين واليهود، لا لعدم تعريض الأب إليانو لمخاطر لا فائدة منها فحسب، بل لعدم وجود أيّ أمل أيضًا بجني بعض الثمر لدى هاتَيْن المجموعتَيْن، ولم يستثنيا إلاّ الأتراك.

وفي مدينة البندقيّة الجامعة لأجناس مختلفة، مارس رودريكيز خدمته الرسوليّة في أوقات فراغه. وعلى ظهر السفينة، كان نحو مائة وعشرة ركّاب، استنادًا إلى الأرقام التي ذكرها إليانو: سبعون يهوديًّا ومتنصّرًا[1] وثلاثون مسيحيًّا وعشرة من النبلاء. فتمّ سماع اعترافهم وتعلّموا تلاوة فرض العذراء. وأُقيمت لهم «قداديس بيضاء» واستمعوا إلى قراءة الكتب الروحيّة طوالَ رحلتهم التي لا

(١) المتنصّر هو اليهوديّ الذي أُجبر على اعتناق المسيحيّة والذي ما زال يمارس اليهوديّة سرًّا.

نهاية لها. وأفحم اللاوثريّون بنجاح. هذا وقد حرّم اليسوعيّان اللعب بالأوراق والتجديف!

وعند وصولهما إلى مصر، اهتمّ الأبوان اهتمامًا خاصًّا بالعبيد، شرط ألاّ يعرّضا للخطر خدمتهما الرسوليّة الأساسيّة، لأنّ العبد، إن نجح في الهرب، يعرّض للخطر الشديد من رُئي في صحبته. سرعان ما اهتدى الأب إليانو إلى الأخ قْرير، لكنّ اليسوعيّين لم يستطيعا أن يفدياه. وفي أثناء البعثة البابويّة، سيكرّس الأب إليانو نفسه على وجه نظاميّ للاهتمام بالعبيد وفدائهم.

إنّ الإفرنج يتعاطون التجارة خاصّةً، وليسوا ممّن يمارسون واجباتهم الدينيّة. عددهم قليل في القاهرة (لا يذكر أحد أرقامًا)، لكنّهم أكثر عددًا في الإسكندريّة، بسبب وجود المرفأ وتوفُّر النشاط التجاريّ.

لم ينسيا الشعب القبطيّ، وهما يشكوان من الجهل الدينيّ الذي لقياه، ومن التأخير في مَنْح سرّ المعموديّة ومن التقصير الكبير في التقدّم من سرّ الاعتراف. لكن قلّة معرفة اللغة العربيّة عند اليسوعيّين كانت تحول دون انصرافهما إلى خدمة رسوليّة مثمرة، مع أنّهما كانا شديدي الرغبة فيها. وقد اقترح الأب رودريكيز، كسبًا لعطف الشعب القبطيّ، إنشاء مدرسة أو حتّى دير صغير في الإسكندريّة، عن يد الرهبانيّة اليسوعيّة أو رهبانيّة أخرى. واجتهد أن يردّ على بعض الاعتراضات التي قد تحول دون تحقيق هذا المشروع.

أمّا الجاحدون، أولئك المسيحيّون المساكين الذين، بعد استنفاد جميع الوسائل، اعتنقوا دينًا آخر، فالأبوان أشارا عليهم باللجوء إلى العالم المسيحيّ. وكانت المناقشات مع «الهراطقة» حادّة وظافرة. ولقد مُزّقت علنًا بعض الكتب الهدّامة. لكن اليونانيّين كانوا يقاومون كلّ محاولة للتأثير فيهم. وجرت مناقشة مع بعض رهبان دير القدّيسة كاترينا، لكنّها بقيت على مستوى المجاملات ولم تأتِ بأيّ ثمر.

في الواقع، توصّل الأب إليانو وحده إلى القيام ببعض الخدمات الرسوليّة، بفضل معرفته لبعض اللغات، في حين أنّ الأب رودريكيز مُنع عنها بسبب أمراضه وعاهاته. وكانت الإسكندريّة مدينة غير صحّيّة وموبوءة

بالطاعون. فكان الأب رودريكيز ضعيفًا بسبب تواتر الإسهال والزُّحار، يتألّم من استمرار الحمّى، حتّى إنّ الأطبّاء فقدوا مرّتين كلّ أمل بشفائه. وأحيانًا ما يجد اليسوعيّان نفسيهما عاجزَيْن، بسبب ضعفهما، عن الكتابة وحتّى عن توقيع رسالة. وفي قبرس، شعر الأب إليانو بأنّه لم يعد مرتبطًا برسالته لدى الأقباط، فاستغلّ غيرته الرسوليّة وانصرف إلى عدّة خدمات رسوليّة: فأخذ يعمّد ويسمع الاعترافات ويلقي المواعظ ويجتهد أن يجد بعض الشبّان ليُرسلهم إلى رومة ويحثّ إسحق، المطران القبطيّ، على المشاركة في المجمع.

وأخيرًا، نرى الأب إليانو، وهو اليهوديّ الأصل فوجد اكتمال دينه في الاهتداء إلى المسيح، يجتهد أن يُشرك أبناء دينه في النعمة التي نالها. قبل ذهابه، كانت الخدمة الرسوليّة لدى يهود رومة متواصلة. أمّا في أثناء إقامته في مصر، فلقد أوصى الرئيس العامّ بالكثير من الفطنة. وفي البندقيّة، وقبل إبحار السفينة، تدخّل اليسوعيّان بقوّة ليمنعا يهوديًّا مهتديًا إلى المسيحيّة من الذهاب ومن فقدان الإيمان في الخارج، وقد منعا كذلك خادمة مسيحيّة في عائلة يهوديّة من الذهاب ومن فقدان الإيمان أو من الاضطرار إلى اتّباع نمط حياة فاسد. وعلى خلاف ذلك، فإنّ بعض اليهود يهتدون اهتداءً ثابتًا، منهم رجل يسمّى مالين، شخصيّة بارزة في جمارك الإسكندريّة. فلقد أقام في البندقيّة حيث سار سيرة هادئة وكان قدوة صالحة. إنّ الله قادر على «أن يُخرج من الحجارة أبناءً لإبراهيم» (متّى ٣/٩)، هي الفكرة التي كثيرًا ما دوّنها قلم اليسوعيّين، وقد أنهكتهما قساوة اليهود والأقباط.

القبض على الأب إليانو

لقد حدث أخيرًا ما توقّع الأب لينيز وخشي وقوعه. فإنّ أبناء دين الأب إليانو السابقين جعلوا عيشه لا يُطاق، فأجبروه على الذهاب وكانوا بذلك سببًا غير مباشر لإنهاء البعثة البابويّة.

ففي أرض مصر، حيث لا يخفى شيء، ما لبث الأب إليانو أن كشف أمره، بالرغم من اتّخاذه جميع تدابير الحيطة. وسبق له، في البندقيّة، أن اضطرّ إلى الاختباء في غرفة صغيرة وإلى الصعود خفيةً إلى متن السفينة، لاجتناب

الشائعات. وفي السفينة، عرفه بعض اليهود. وفي الإسكندريّة، فضّل الأب إطالة المقام، لأنّ اليهود كانوا كُثْرًا في المرفأ والجمارك. ومع كلّ ذلك، ففي القاهرة نفسها، كاد الأب إليانو أن يُعرف منذ وصوله إليها، ولقد سمعت أمّه نفسها بحضور ابنها الذي لم تره منذ نحو عشر سنين. ولم يرد الأب إليانو أن يراها في تلك الأيّام. وفي كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢، أخذ بعض الأشخاص يطالبونه بدين قديم. وما يفسّر ذلك أنّ الأب اهتدى في تلك الأثناء إلى دين آخر، علمًا بأنّ الجحود كان يستحقّ الإعدام حرقًا بحسب شريعة الأتراك. وكان التخلّص من هذا الحكم يقتضي دفع مبلغ باهظ من المال أو اعتناق دين الأتراك، وهما احتمالان مستحيلان على اليسوعيّ. وهذه الظروف شلّت حركة الأب وعثّرت تنقّلاته. من الراجح أنّ القنصل توصّل إلى لفلفة قضيّة الدين المزعوم. لكنّ الأب الرئيس رأى نفسه مُرغمًا إلى حدّ بعيد على تعيين خلف لرفيقه. وفي نهاية إقامتهما في أرض أفريقيّة، كان اليهود أنفسهم سبب ابتعاد الأب إليانو. وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة، برّر هذا الابتعاد في سيرته الذاتيّة، ووصفه بكثير من التفاصيل، فجاءت روايته مليئة بالحيويّة.

ففي ذات يوم، كان الأب إليانو والأخ برافو ينظّمان الذهاب على شاطئ البحر. وإذا بعصابة من اليهود والأتراك والمغاربة خرجت من المجهول وقبضت على الأب. فسيق إلى القاضي حيث تمّت مجابهة طرفين: من جهة، اليهود الذين اتّهموا ابن دينهم بالدَّين الذي عليه أوّلاً، ثمّ بجحوده، ومن جهة أخرى، الأب رودريكيز وإلى جانبه القنصل وتجّار المدينة الإفرنج. وتوصّل هؤلاء إلى الحصول على إخلاء سبيل الأب بكفالة، في انتظار صدور قرار باشا القاهرة، لأنّ قاضي الإسكندريّة رُشِي ففضّل عدم التورّط في هذه القضيّة. وبين الذين كتبوا سيرة الأب إليانو مَن لا يتردّد في اتّهام أمّه بإثارة تلك المسألة، اعتقادًا منهم بأنّ هذا الاتّهام من شأنه أن يرفع قدر الأب إليانو. لكنّنا نلاحظ أنّه لا يذكر أيّ شيء من ذلك في وصفه المؤثّر والمتّسم بالحزن والعطف البنويّ لالتقائه الأوّل بأمّه العجوز التي بقيت يهوديّة (بعد انفصال دام عشر سنين واهتداء أليم إلى دين آخر)، وربّما كان هذا الالتقاء اللقاء الأخير بأمّه، لأنّه لم يعد يذكرها بعد ذلك.

إستغلّ الأب إليانو تلك الحرّيّة المؤقّتة وارتدى لباس تاجر حرير فنجح في

مغادرة الإسكندريّة وصعد إلى متن مركب بندقيّ راسٍ في المرفأ، يسمّى الكويرينا. وكتم نائب القنصل هذا الذهاب السرّيّ. وأمّا الأب رودريكيز، فقد أنفق مائة وثلاثين دينارًا، بعد أن حصل من التجّار على ثلاثين منها. وكان هناك الدَّين القديم المزعوم، فدفعه القنصل على الحساب، ولقد اضطُرّ الرئيس بعد ذلك إلى التسوّل في المدينة ليردّ للقنصل ما أنفقه من المال. لكنّ التجّار كانوا يتردّدون في العطاء، اعتقادًا منهم بأنّ ذلك الدَّين لا مبرِّر له وبأنّ اليهود لا يستحقّون هذا المال على الإطلاق.

وما عدا ذلك، كان اليسوعيّان يكتفيان بانتظار الأمر بالعودة. ولهذه الغاية، كان الأب رودريكيز، وهو مُوَسوس بعض الشيء، يتمنّى الحصول على أمر صريح من الرئيس العامّ نفسه، متردّدًا في الاكتفاء ببعض الأخبار غير المباشرة.

إنّ مجمل تلك الحوادث المؤسفة رسم عند اليسوعيّين في أوروبّا ـ وعند غيرهم أيضًا ـ صورة سيّئة عن أقباط مصر. فأخذت فكرة الأقباط الخادعين واليسوعيّين المخدوعين ترسخ في الأذهان. وفي ذات يوم، وصل راهبان قبطيّان إلى جزيرة صَقَلّية، يُدعَيان يوسف وميخائيل، وهما من أحد أديرة وادي نطرون. وكانا يحملان عدّة رسائل توصية من البابا ومن بعض الأمراء وغيرهم، ومرادهما جمع التبرّعات لمساعدة أديرتهما. لكن خبر الخدعة التي ذهب الأب رودريكيز ضحيّتها كان ينتشر. فاضطرّ الأب ريبادينيرا، رئيس إقليم الجزيرة، إلى مراسلة رؤسائه في رومة للحصول على معلومات. وكانوا على علم بما فعل أبرام وبما عاناه الموفدان، فرأوا من واجبهم أن يحذّروا اليسوعيّين من الأقباط. ولمّا جاءت نتيجة جمع التبرّعات وخيمة، شكا بطريرك الأقباط أمره إلى البابا، قائلاً إنّ اليسوعيّين وصفاه في أوروبّا بشكل غير ملائم!

ومن جهة أخرى ـ ولكن لا داعي هنا إلى التوسّع في الأمر، مع أنّه على جانب كبير من الأهمّيّة ـ فلقد أدّى ذلك الاحتكاك بثقافة غير مألوفة إلى تحوُّل تدريجيّ في طرق التفكير السائدة في أوروبّا الوسطى في ما يتعلّق بأمور القارّة القديمة.

خاتمة البعثة البابويّة

غادر الأب إليانو الإسكندريّة في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦٢، فغرقت السفينة التي كان على ظهرها أمام شواطئ قبرس. ولقد وصف هذه المغامرة في رواية لا تقلّ تشويقًا عن رواية أسره. وفي قبرس، كتب بعض الرسائل وبيّن فيها ما قام به من نشاط وسوليّ في هذه الجزيرة. وفي أسبوع الآلام سنة ١٥٦٣، عاد الأب إليانو إلى أوروبّا فوصل إلى البندقيّة في مطلع حزيران (يونيو)، في حين أنّ الأب رودريكيز والأخ برافو سبقاه إليها ببعضة أسابيع.

وكانت الخيبة الأخيرة شديدة بقدر ما كان الأمل الانفتاحيّ كبيرًا.

البعثة البابويّة الثانية (١٥٨٢ - ١٥٨٥)

هذه البعثة لدى الأقباط لم تكن متوقّعة في الأصل. فبينما كانت خُطى الأب إليانو تذرع قرى جبل لبنان، كان قنصل فرنسا في القاهرة، بولس ماريانى البندقيّ، يحاول أن يعيده إلى مصر. ففي نظره، كان الناس مستعدّين لقبول محاولة اتّحاد جديدة. لكن الأب إليانو أعرب عن تحفّظه. وعدّ من واجبه المطلق أن يختم قبل كلّ شيء بعثته لدى الموارنة. أمّا في رومة، فقد قوبلت أفكار القنصل بشيء من الترحيب.

هدف الرحلة

في صيف ١٥٨٢، كانت البعثة في لبنان على وشك الاختتام. ففي ٧ حزيران (يونيو)، كان الأب يوحنّا برينو والأخ ماريو، اللذان عاونا الأب إليانو، قد غادرا جبل لبنان، وأبحرا إلى قبرس، لكي ينتظرا في هذه الجزيرة سفينة إلى إيطاليا. أمّا الأب إليانو، فكان قد قصد موارنة حلب. وفي هذه المدينة، وصلته في ١٥ آب (أغسطس) رسالة من الأب أكواڤيڤا، بعث بها قبل شهرين، وطلب فيها إليه أن يذهب دون إبطاء إلى مصر، برفقة الأخ ماريو. فاضطرّ هذا الأخ أن يرجع أدراجه ويعود من قبرس إلى طرابلس. وكانت

الحقائب على ظهر السفينة نُقلت إلى مركب آخر أبحر في ٢٢ أيلول (سبتمبر) إلى مصر. وبعد رحلة دامت أحد عشر يومًا، وصل اليسوعيّان دون عائق إلى القاهرة، عاصمة البلاد، وأقاما عند القنصل. وبعد ثلاثة أيام، أي في ٦ تشرين الأوّل (أكتوبر)، قام الأب إليانو بزيارته الأولى ليوحنّا الرابع عشر (١٥٧١ ـ ١٥٨٤)، بطريرك الأقباط.

كان لهذه الزيارة الأولى طابع الاستطلاع، أريد بها الاستكشاف عن نيّة البطريرك والحكم، بعد الإخفاق المرير الذي عرفناه قبل عشرين سنة، هل في اتّصال جديد بين كنيستَي رومة ومصر ما يؤمِّل خيرًا. بدا الأب إليانو مرتابًا في أوّل الأمر، ثمّ بدّل رأيه إلى حدّ ما. ولقد عرض وجهة نظره في بعض الرسائل التي بعث بها إلى السلطات الكنسيّة في رومة. وإلى جانب ذلك، رأى من واجبه، للقيام بمشروعه أحسن قيام، أن يلتمس تفويضًا رسميًا ووجود لاهوتيّ يكون ابن مهنته.

في انتظار التوجيهات الرومانيّة

وبدأت بعد ذلك فترة انتظار بدت لا نهاية لها. تسلّمت رومة رسائل للأب إليانو، لكن رسائل مراسليه تأخّرت كثيرًا في الوصول إليه. وفي أثناء ذلك، نجح الأب في استمالة بعض الأشخاص إلى العقيدة الكاثوليكيّة. ومن جهة أخرى، أخذ يدقّق النظر في كتب الأقباط ويدوّن ما وجده. وألّف من القضايا الكاثوليكيّة التي اكتشفها في هذه الكتب مجموعة مختارات مفيدة جدًا. فلقد أدرك الأب إليانو، من اختباره في البعثة البابويّة السابقة ١٥٦١ ـ ١٥٦٣، أنّ معرفة الأقباط والاطّلاع على كتبهم وطقوسهم والرجوع إلى آبائهم في الإيمان كانت على جانب كبير من الأهمّيّة، فإنّ سلطة الآباء في الشرق هي فوق الاستدلالات العقليّة. فكان من المهمّ أن يُكتشف بماذا يؤمن الناس حقًّا في صميم قلوبهم، وإن بَدَت أقوالهم في بعض الأحوال غير صحيحة من الناحية الاصطلاحيّة. أمّا ماريو، رفيق الأب إليانو، فكان متقلّب المزاج. فأراد رئيسه أن يُلهيه، فأرسله إلى زيارة دير القدّيسة كاترينا في سيناء. وفي الواقع، لم يتكيّف الأخ ماريو للأوضاع الجديدة إلاّ بمشقّة، وهذا شأن الأخ بُرافو في البعثة البابويّة الأولى إلى مصر. فلم يجد الراحة، لا عند الموارنة ولا بين الأقباط. وقد التمس

الأب إليانو أكثر من مرّة من الرئيس العامّ أن يأذن إليه بإعادته إلى إيطاليا.

تحسّن وضع الأب إليانو الاجتماعيّ إلى حدّ بعيد بالنسبة إلى البعثة السابقة. في شتاء ١٥٦٢، اضطُرّ إلى الابتعاد عن عنف أبناء دينه السابقين، أمّا الآن، فإنّ اليهود في القاهرة كانوا يخافونه وكأنّه موفد من قِبَل بابا قدير. فلم يلق أيّة مشكلة في إقامة العلاقات مع محيطه الماضي وفي زيارة شقيقه.

لبّت رومة، بدون علم الأب إليانو، ما طلبه. فقد حرّر قلم ديوان البابا بعض المراسيم. وكُلِّف الكردينال دي سافيرينا (١٥٣٢-١٦٠٢) بتتبُّع ذلك المشروع الرسوليّ عن كثب، فوضع سلسلة طويلة من التعليمات. وأراد الأب أكواڤيڤا (١٥٤٣ - ١٦١٥) أن يساعد الأب إليانو على الصعيد العقائديّ، فاختار لاهوتيًّا من نابولي، كان صغير السنّ ولكنّه لامع، وهو الأب فرنسيس ساسو (١٥٥٢ - ١٦٢٣)، وأمر الأخ فرنسيس بيونو (نحو ١٥٥٠ - ١٥٩٩) بمرافقته، لكي يكون حضوره في القاهرة سندًا للأخ ماريو الذي انحطّت معنويّاته. وفي ١١ آذار (مارس) ١٥٨٣، غادر المسافران رومة إلى البندقيّة، واشتريا فيها بعض الأشياء. وفي ٢٥ حزيران (يونيو)، أبحرت سفينتها، فاجتازت كورفو والقسطنطينيّة، ووصل اليسوعيّان إلى القاهرة سالمَيْن في ١٢ آب (أغسطس) ١٥٨٣، في أحرّ أيّام الصيف.

المصاعب الأولى

ما لبثت البعثة البابويّة أن شرعت في العمل حتّى اضطُرّت إلى التخفيف من اندفاعها. وُضع بطريرك الأقباط أمام الأمر الواقع بحضور الموفدَين المفوّضين، فحاول الإفلات من إلحاحها على الدعوة إلى عقد سينودس. وزعم يوحنّا الرابع عشر من واجبه أن ينتظر وصول رسالة من البابا قبل الدخول في النقاش حول المسائل العقائديّة. وتصامّ عن دليل اليسوعيّين بقولها: «نحن جواب حيّ للبابا». فأدّى ذلك إلى أنّ الأب ساسو فقد ثقته بالمهمّة التي قبلها بطيبة خاطر. ولاحت في الأفق فترة ركود، فانتزع من الأب إليانو إذنًا في زيارة الأراضي المقدّسة برفقة الأخ بيونو. لكن الرحلة باءت بالفشل لعدم وجود سفينة مبحرة إلى فلسطين. كان اليسوعيّان قد انطلقا في ١٠ أيلول (سبتمبر) فعادا في الـ ٢٥ منه.

وفي انتظار الخاتمة، وجب على الموفدين أن يتحلّيا بالصبر. فواصل الأب إليانو أبحاثه، وأخذ الأب ساسو يؤلّف مقالاً يردّ فيه على الأقباط، ويُعنى الأب إليانو بترجمته إلى العربيّة. فإن عُقد سينودس، يكون الموفدان قد استعدّا له على قدر الإمكان. لكن الأمل كان ضئيلاً.

وقام الأب إليانو، إلى جانب أبحاثه العلميّة، ببعض الخدمات الرسوليّة. كانت أحوال العبيد تهزّ مشاعره. فاجتهد بثبات في التخفيف من مصائبهم وفي افتداء بعضهم، حتّى إنّ الرئيس العامّ اضطُرّ إلى الحدّ من شدّة غيرته. وكان الرحّالة البولوني، خريستوف رَذْزيفيل، يزور مصر في شهرَي آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) ١٥٨٣، فترك للأب إليانو صدقة كبيرة للتخفيف من أحوالهم البائسة. وهناك رحّالة آخر، بْروسبير ألپان الطبيب، كان هو أيضًا من حلقة الأصدقاء.

ما هو السبب الذي حمل البطريرك الجليل على أن يُظهر كثيرًا من التحفُّظ؟ قد نتيه في تكهّنات لا حدّ لها. يبدو من الراجح مع ذلك أنّ بعض القوى المقاومة كانت تسعى وراء الكواليس. فإنّ نعمان، بطريرك اليعاقبة، الذي لجأ إلى رومة والذي كان يعيش في بلاط البابا، قام بدور ملبّس في هذه القضيّة. فلقد بدا أنّ هذه الشخصيّة أرادت أن تعارض كلّ سعي للتقارب بين كنيستَي رومة ومصر. كان هذا الحَبر يقيم في رومة فكان سهلاً عليه أن يطّلع على الأمور. وفي المراسلة التي وصلت إلينا لا يظهر بمظهرٍ لصالحه.

سينودس مَنْف

وأخيرًا، وبعد الكثير من التردُّد والضغط، ولا سيّما من قِبَل القنصل، قبل البطريرك أن يوجّه الدعوة إلى انعقاد سينودس في عيد الميلاد. وفي دار بولس مارياني، تمّ انعقاد «مجمع مَنْف» للمرّة الأولى. فشرح الموفدان للأقباط ما تنتظره كنيسة رومة منهم: قبول مجمع خلقيدونية القائل بوجود طبيعتَين في يسوع المسيح، ورفض مذهب ديوسقورس. أثار هذا العرض دهش الأقباط، فقد خُيِّل إليهم سماع عقيدة ثوريّة! فطلبوا مهلة للتفكير والاستشارة. وفي اجتماع آخر عُقد في مطلع كانون الثاني (يناير) ١٥٨٤، رفض البطريرك

عروض روما رفضًا باتًّا. وكان دليلهم أنّ هذه العقيدة «الجديدة» لا تتّفق على الإطلاق مع تعليم آبائهم في الإيمان. فبدا للمرّة الثانية أنّ البعثة كُتب لها الإخفاق. لكن اليسوعيّين وماريانو وجدوا في وصول ديوسقورس، وهو أسقف ذو نفوذ قلّ نظيره، تأييدًا مكّنهم أن ينتزعوا من الأقباط قبول عقد جلسة ثالثة، واستقبل القنصل في مقرّه، في ١ شباط (فبراير) ١٥٨٤، البطريرك ونائبه والأسقف ديوسقورس وثلاثة آخرين، ثلاثة من أعيان الأمّة ونحو عشرين شخصًا من مستوى ثقافيّ رفيع، يميل بعضهم إلى العقائد الكاثوليكيّة. لا ننسَ هنا أنّ ماريانو كان يتمتّع بحظوة لدى الأقباط، فقد أدّى لهم كثيرًا من الخدمات، فكان نفوذه يمهّد إلى حدّ بعيد جميع مشاريع اليسوعيّين. أمّا تآليف هذه الجمعيّة، فيجوز التساؤل إلى أيّ حدّ كان يمثّل في الواقع أمّة الأقباط. وأخيرًا، وفي ختام نقاش طويل، قدّم السينودس نصًّا رأى الموفدان أنّه مقبول. لا شكّ أنّ الأقباط لم يعترفوا بوجود طبيعتَيْن في يسوع المسيح «قولاً» بل قبلوه «حقيقةً».

لكن ارتياح اليسوعيّين أمام نتيجة غير منتظرة لم تدم طويلاً. فمن الطرفين، بقي قبول الاتّفاق الحاصل بدون أثر. ذلك بأنّ البطريرك، نزولاً عند إلحاح نائبه، رفض التوقيع على الوثيقة. ولمّا قرب زمن الصوم، انصرف إلى البرّيّة حيث امتدّت إقامته، على أثر اضطهاد لم يَطُل والحمد لله - وأراد بعد ذلك إكمال الزيارة الرعويّة في الدلتا. وفي روما أيضًا نرى أنّ النصّ الذي وُضع بعد الجهد والكدّ لم ينل حظوة لا في عيني الكردينال دي صنتا سيفرينا، ولا في عيني الرئيس العامّ، ولا في أعين مَن استُشير من اللاهوتيّين. فإنّ جميعهم طالبوا باعتراف صريح بالمجمع الخلقيدونيّ.

مواصلة البعثة

فلم يكن هناك حاجة إلى مواصلة البعثة - (رأى اليسوعيّون (وإن لم يشارك الأب إليانو إخوانه صراحةً في رأيهم) أنّ جميع الظروف مجتمعة للاستئذان بالعودة إلى إيطاليا. وفي تلك الأثناء، قام الأب ساسو بزيارته إلى الأراضي المقدّسة. فبدأ رحلته، بصحبة الأخ برينو، في ٢٢ آذار (مارس). أمّا تاريخ عودته فليس هو معروفًا. وبقي الأب إليانو وحده مع ماريو، وألحّ عليه

هذا بالعودة إلى مقرّهم. ولكن كان لا بدّ من انتظار نهاية الصيف، لأنّ فصل السفر بحرًا قد فات. وبالرغم من الظواهر المعاكسة، لم يفقد الأب أمله في نجاح البعثة، فلم ينقطع عن أبحاثه في كتب الآباء. وكذلك فإنّ روما لم تعدل عن مواصلة البعثة، أمام الإخفاق الذي واجهته في مصر. فبعثت برسائل إلى القاهرة تأكيدًا لموقفها.

حوادث جديدة

ومع ذلك، فقد وقع، في أثناء صيف ١٥٨٤، حادثتان خطيرتان زعزعتا إلى حدّ بعيد العمل الذي تمّ حتّى ذلك الحين.

الحادثة الأولى كانت وصول خريستوف قُتّو، قنصل فرنسا الأصيل، إلى مصر. أراد أن يستعيد منصبه الذي يشغله ماريانى. فقام صراع حامٍ بينهما، لمعرفة من سيشغل ذلك المنصب المُربح، منصب قنصل فرنسا في القاهرة. فذهب اليسوعيّان ضحيّة ذلك التنافس البريئة. فلقد دافعا دفاعًا شديدًا عن الذي أحسن إليهم وأيّد مقاصدهم. ولا شكّ أنّ تعلُّقهم المطلق بذلك الصديق قلّل من بصيرتهم لنقائصه الاحتياليّة في ما يختصّ بالتجارة والسياسة.

وفي المدينة الخالدة أيضًا، واصل نعمان، بطريرك اليعاقبة، سعيه لترسيخ الاختلاف العقائديّ. وإلى جانب ذلك، نادت بعض الحلقات الرومانيّة، أمام قلّة نجاح بعثة اليسوعيّين، باتّخاذ مقاربة مختلفة. ففي ٢٨ تمّوز (يوليو) ١٥٨٤، وصل إلى القاهرة موفدان آخران من قبل البابا، حاملَين براءات بابويّة، وهما يوحنّا المعمدان ڤيكيّتي، غنهانيّ من فلورنسة، ويوحنّا مريم الحبشيّ، كاهن شرقيّ. فكانت العلاقات بين اليسوعيّين وهذين القادمَين الجديدَين قليلة الحرارة. ولقد اعترف الأب إليانو بأنّه لا يقلّ عن الأقباط ارتباكًا، فهم لم يعودوا يعرفون إلى مَن يلجأون.

إلقاء اليسوعيّين في السجن

وفي ٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٨٤، انتقل بطريرك الأقباط، يوحنّا الرابع عشر، إلى حياة أفضل، وكان ذلك في نَخريّة، وهي قرية بالقرب من

العاصمة. وكان قد أوشك على الانتهاء من زيارته الرعويّة للدلتا، فبقي الاتّفاق العقائديّ الذي توصّل إليه السينودس بلا توقيع.

وقبل انتخاب بطريرك جديد، قد تمضي عدّة أشهر، أو حتّى عدّة سنوات. ولم يكن هناك أيّ سبب وجيه يُجبر اليسوعيّين على البقاء في بلاد النيل، فاستقرّ القرار على مغادرتها، وذهب ماريو إلى الإسكندريّة في ١٨ (؟) (سبتمبر) ١٥٨٤. وكان الموفدان قد تسلّما قبل ذلك رسالة من وجهاء الأقباط، فقد شعروا، على أثر وفاة رئيسهم الدينيّ، بحاجة إلى التعبير باسمه - لم تُحفظ هذه الرسالة فلا نعرف مضمونها بالضبط - عن رغبتهم في البقاء على صلة بكنيسة رومة. وبعد ذلك بثلاثة أيّام، يوم الجمعة ٢١ أيلول (سبتمبر)، وقعت الكارثة: فحين أوشك اليسوعيّان على مغادرة منزلهما للإبحار في بولاق، (وكان هناك أيضًا راهبان فرنسيّان)، ذُعرا بمشاهدة بعض الجنود يحتلّون غُرَفيها فجأةً، ويحطّمون كلّ شيء بوقاحة ويضربون الرهبان. ثمّ وضعوا الأختام على الأبواب وذهبوا بالصناديق الثمينة، بما فيها من رسائل وتوجيهات ومراسيم وبراءات. وبعد ذلك، ساقهم الجنود، وكأنّهم مجرمون، إلى مكان سجنهم، مرورًا بالمدينة، في وسط المتفرّجين من الرعاع. ومن الأمور الغريبة أنّ رجلاً مقنّعًا، يبدو أنّه مطّلع على أمور المنزل، هو الذي أشرف على العمليّة كلّها. وفي انتظار إجراء الاستجوابات في حضرة الباشا، أُلقي اليسوعيّان والراهبان الفرنسيّان في السجن.

فكّر اليسوعيّان أوّلاً في الاستشهاد واستعدّا له. لكنّهما، لحسن ظنّهما، قد أخطآ في تقديرهما. فإنّ العمليّة في الواقع كانت ضربة دنيئة من قبل خريستوف فتّو: فقد أراد أن يحطّ، في عيون الناس، من نفوذ مارياني، عدوّه اللدود، فلم يجد أفضل من بسط اليد إلى ضيفيه اليسوعيّين، ومن اتّهامهما الخطير بتحريض الأقباط على التمرُّد على سلطات البلاد. من شأن مثل هذا الاتّهام أن يُنظر فيه بما أمكن من الجدّيّة، فإنّ ذكريات هزيمة ليبانت (٧ تشرين الأوّل ١٥٧١) لم تكن قد امّحت من الأذهان. ولمّا قام الباشا باستجواب موفدَي البابا، لم يَبْدُ له أنّهما عرضة لتلك التعريضات غير المعقولة، وذلك بالرغم من اطّلاعه على رسالة وجهاء الأقباط التي عثر عليها الباشا في الصناديق، والتي فُسّرت لأوّل وهلة تفسيرًا مورِّطًا.

وانقلبت القضيّة، كما يجري غالبًا في مثل تلك الإهانات، إلى قبضة ماليّة. فبذل القناصلة والتجّار الأوروبيّون جهودهم لجمع الفدية المطلوبة. وفي ١٥ تشرين الأوّل (أكتوبر)، وبعد ثلاثة أسابيع مُتعبة، خرج اليسوعيّان سالمَيْن من سجنهما. وفي هذه الأثناء، مات الأخ ماريو موتًا فجائيًّا في الإسكندريّة.

خاتمة البعثة البابويّة

بعد كلّ ما جرى، تقلّصت حتمًا الآمال الأخيرة في نجاح البعثة البابويّة. وأخذ الأقباط يتجنّبون من خوفهم كلّ احتكاك بأولئك الغرباء الذين يُنظر إليهم في البلاد نظرة استياء. وأراد الأب إليانو من جهته أن يكشف الحقيقة في الأحداث الفاضحة التي دمّرت جهودهم الدائبة. فرضي بعض التجّار بأن يشهدوا لما عرفوا، ولا سيّما في شأن ذلك الشخص الغامض المقنّع، وبأن يوقّعوا في ذيل محضر حُرِّر بحسب الأصول. وفي تلك الأثناء، عُدَّ بولس مارياني والباشا إبراهيم، من دون أن يكون أي ارتباط بين الأمرين، معزولَين عن وظيفتهما. فاضطُرّ الأوّل إلى التخلّي عن القنصليّة، وغادر الآخر أرض مصر.

فلم يبْقَ للبعثة البابويّة أيّ مستقبل، مع أنّ اليسوعيّين كانوا مأمورين صراحةً بالبقاء (علمًا بأنّ الرسائل كانت تصل إلى أصحابها بعد أشهر، وأنّ تلك الأوامر الساقطة تعود إلى الصيف). فاستشاروا أصدقاءهم، فأجمعوا كلّهم على الحلّ التالي: يذهب الأب ساسو إلى رومة ويُطلع المسؤولين على الأحوال الصحيحة، في حين أنّ الأب إليانو ينتظر في الوقت نفسه توجيهات جديدة وانتخاب بطريرك قبطيّ جديد. وهكذا غادر الأب ساسو القاهرة في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) اجتاز أبواب المدينة الخالدة. وبعد ذلك بأيّام قليلة، منحه غريغوريوس الثالث عشر مقابلة. ثمّ استقرّ الرأي على أن يتتبّع الأب إليانو انتخاب البطريرك، شرط ألاّ يتعرّض شخصيًّا لبعض المخاطر.

وفي ١٠ نيسان (أبريل) ١٥٨٥، توفّي البابا غريغوريوس الثالث عشر. ومن جهة أخرى، تأخّر انتخاب بطريرك الأقباط، وكان يُخشى أن يقوم الباشا باستئناف الدعوى، فركب الأب إليانو والأخ بيونر، في شهر آيار (مايو)، سفينة ذاهبة إلى إيطاليا. وفي الطريق، تأخّر الأخ، في حين أنّ الأب واصل رحلته إلى

رومة ووصل إليها في تشرين الأوّل (أكتوبر). وفي يوم الثلاثاء ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، منحه البابا الجديد، سِكْسْتُس الخامس، مقابلة. وكان البابا قد ورث شواغل أخرى، فلم يُبْدِ من الاهتمام إلاّ القليل.

بوشرت البعثة البابويّة الثانية لدى الأقباط بكثير من التفاؤل، وسارت بكثير من العناء، وانطفأت كالشمعة.

الخاتمة

في ١٠ أيّار (مايو) ١٩٧٣، قام البابا بولس السادس، خليفة بيوس الرابع وغريغوريوس الثالث عشر من جهة، وبطْريرك الأقباط شنودا الثالث، خليفة جبرائيل السابع ويوحنّا الرابع عشر من جهة أخرى، بالتوقيع على شهادة إيمان مشتركة وصرّح بولس السادس في الكلمة التي وجّهها إلى البطريرك: «قامت مناقشات حادّة حول العبارات العقائديّة التي كانت سبب غموض في الاتّفاق الجوهريّ على الحقيقة التي حاولت الكلمات أن تعبّر عنها». وهذا يعني الاعتراف بأنّ سرّ التجسّد، رهان المجمع الخلقيدونيّ، «هو سرّ لا يوصف ولا يعبّر عنه ويفوق جميع الكلمات».

أفليس أن الاعتراف بهذه الحقيقة هو اعتراف بما شعر به الأب إليانو وبالتمييز الذي وضعه بين «قولاً» و«حقيقةً»؟

من منشورات دار المشرق

عن الرهبانيّة اليسوعيّة وتاريخها

- القوانين التأسيسيّة، وضعها القدّيس إغناطيوس دي لويولا، ١٩٩٠
- جمهورية اشتراكيّة مسيحيّة: اليسوعيّون وهنود البركواي (١٦٠٩ - ١٧٦٨)، نقلها إلى العربيّة د. كميل إسكندر حشيمه، ١٩٩١
- *Jésuites au Proche-Orient*, par H. Jalabert, S.J., 1987
- *Une histoire du Liban à travers les archives des Jésuites (1816-1845)*, par S. Kuri, S.J., 1985

بعض مؤلّفات الأب لويس شيخو

- النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة، طبعة ثانية، ١٩٨٩
- تاريخ الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر والربع الأوّل من القرن العشرين، طبعة ثالثة، ١٩٩١
- شعراء النصرانيّة قبل الإسلام، طبعة رابعة، ١٩٩١
- شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، طبعة رابعة، ١٩٩١